المحاضرة الثامنة: الرمز والأسطورة في النص الشعري المعاصر

تمهيد:

تمثل الأسطورة تقنية من تقنيات النص الشعري الحديث والمعاصر، وتخضع الأسطورة للمبادئ نفسها التي تحكم استخدام سائر الرموز الشعرية. ذلك إن الأسطورة أقرب إلى أن تكون جمعاً بين طائفة من الرموز المتجاوبة، فهي تمثل طبيعة الانسان الأولى وتعامل هذا الانسان مع ظواهر الكون والوجود ، وتحكم علاقة الشاعر بالأسطورة منطق الشعرية لا منطق الأسطورة في حد ذاتها ، شأنها في ذلك شأن الرموز غير المرتبطة بالأسطورة. وفي هذا لا تختلف العناصر الرمزية في الأسطورة عن شخوص الأسطورة، ومن هنا أصر بعض النقاد أن يطلقوا عل هذا النوع من الرمز عبارة "الرمز الأسطوري ".

مفاهيم الأسطورة:

توزعت مفاهيم الأسطورة بين القص والنص الشعري، وكانت من أعقد المفاهيم في الأنثروبولوجيا، وفي هذا السياق نورد تعريفين دقيقين لكل من ميرسيا إلياد و هنري فرانكفورت:

أ ـ تعريف ميرسيا إلياد: يرى ميرسيا إيلياد أن الأسطورة « تروي حكاية مقدسة، وتخبر عن حدث تمّ في زمن موغل في القدم، زمن البداية. بعبارة أخرى، إن الأسطورة تروي كيف وُجد بفضل كائنات مقدسة، واقع معيّن، سواء كان هذا الواقع كلياً شمولياً مثل الكون، أو جزئيا مثل خلق جزيرة أو شجرة... إلخ. إنها تروي كيف يتجلى المقدس ويعلن عن نفسه في الواقع. وذلك التجلي هو الذي يكون وراء حدث الخلق ».

ب ـ تعريف هنري فرانكفورت: يذهب فرانكفورت إلى أن الأسطورة« ضرب من الشعر يسمو على الشعر بإعلانه عن حقيقة ما، ضرب من التعليل العقلي يسمو على التعليل بأنه يبني أحداث الحقيقة التي يُعلن عنها، هي ضرب من الفعل، أو السلوك الطقوسي، لا يجد تحقيقه بالفعل نفسه، ولكن عليه أن يعلن أو يوسّع شكلاً شعرياً من أشكال الحقيقة ».

*** توظيف الأسطورة في الشعر المعاصر:**

إن المتأمل في رموز الشعر المعاصر، القديم منها والجديد، والأسطوري منها وغير الأسطوري، يدرك مدى توفيق الشاعر أو إخفاقه في توظيفها توظيفاً شعرياً جمالياً. وأغلب هذه العناصر يرتبط بشخوص أسطوريين.« وأبرز هذه " الرموز الأسطورية " وأكثرها دوراناً هي شخوص السندباد وسيزيف وتموز وعشتروت وأيوب وهابيل وقابيل وأنييّاس والخضر وعنتر وعبلة وشهريار وهرقل والتتار (وإن كان اسماً لجماعة) والسيرين وسقراط وغيرهم ».

وسنحاول أن نتوقف عند شخصية السندباد بوصفه من الأساطير الموظفة بكثرة في الشعر المعاصر، وهي شخصية عرفها التراث العربي في حكاياته الأدبية الشعبية، فهو يمثل شخصية تاجر يجوب البلدان بسفينته بحثاً عن الثروة، ويتعرض في رحلاته لمواقف شاقة لا يخرج منها إلا بعد عناء ومشقة. فهذه الشخصية عادية وغير عادية في الوقت نفسه، هي عادية على المستوى الجمعي للإنسان، لأن قصة الإنسانية إجمالاً، هي قصة المغامرة في سبيل كشف المجهول. وهي غير عادية على المستوى الفردي، لأنه من النادر أن يوجد شخص واحد تتلخص فيه كل التجارب الإنسانية.

وما ينطبق على شخصية السندباد في استخدامها الشعري ينطبق على سيزيف وأيوب وتموز وسائر هذه الشخصيات الرمزية. بل ينطبق كذلك دائما على الرموز الحديثة، سواء منها ما كان شخوصاً أو عناصر مادية.

وفي هذا المستوى، تجدر الإشارة إلى أن تعامل بعض النقاد مع هذه الرموز كان بطريقة التصنيف. فقد صنّفوا هذه الرموز تصنيفاً فكرياً خاصاً، وراحوا ـ بناء على هذا التصنيف ـ يصنفون الشعراء أنفسهم، أو يصنفون شعرهم في مراحله المختلفة. فقصيدة الشاعر، في ضوء هذا التعريف، وحسب تصنيف أحد النقاد، أحياناً " سيزيفية " وأحياناً " بروميثيوسية "، وقد يلتقي فيها في بعض الأحيان " سيزيف " مع " بروميثيوس ". هذا التعامل مع الرمز وتحويله إلى مقولة عقلية إنما يجمّد الرمز نفسه ويحصر مغزاه في إطار ضيق.

وفي هذا المستوى نعود إلى أحد الرموز التي تجلت بكثرة في الشعر المعاصر، وهو رمز السندباد. ونستدل به على طريقة استخدام الرمز الشعري استخداماً ناجحاً.. وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن تجلّيات الاستخدام الشعري الناجح لهذا الرمز تمثّلها قصيدة " رحل النهار " للسياب..

في هذه القصيدة يستخدم الشاعر رمز السندباد وحيداً، وهو يكاد يخيّم على كل أجواء القصيدة، من البداية إلى النهاية، فهذا الرمز مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأبعاد القصيدة حتى لكأن القصيدة تستدعيه، ولا تقبل رمزاً غيره.

وأدلّ ما يكون على نجاح الشاعر في استخدام هذا الرمز استخداماً شعرياً، أنه لم يتعامل معه من الخارج، أي لم يقحمه على السياق الشعري إقحاماً.. ولكنه أضحى عليه من موقفه الشعوري ومن تجربته الخاصة. وفي الوقت نفسه لم يحمّله أكثر من طاقته الإيحائية، بل هو في كل ما أضفاه على هذا الرمز ما زال مرتبطاً بمعطياته الشعورية.. ومن ثمّ حدث الانسجام بين تجربة الشاعر والرمز الذي يستخدمه فأصبح الرمز يشحن التجربة بقدر ما يأخذ منها.

يبدأ الشاعر قصيدته بقوله:

رحل النهارْ
ها إنه انطفأت ذُبالته على أفق توهّج دون نارْ
وجلستِ تنتظرين عودة سندباد من السِّفارْ
والبحر يصرخ من ورائك بالعواصف والرعود

في هذه الأسطر نجد السندباد الذي نعرفه ، قد خرج لسفرة من سفراته، طال أمدها (رحل النهار) ولكنه ترك وراءه من ينتظر عودته ، فرحلات السندباد - مهما طال أمدها - تنتهي عادة بعودته. لكن الأمل في عودته هذه المرة (القصيدة) أخذ يذبل مع مضي الزمن (ها إنه انطفأت ذبالته). ويؤكد هذا أن (البحر يصرخ بالعواصف والرعود)، والسندباد لا يملك في رحلته سوى السفينة والشراع.

السندباد الشجاع المقدام يصبح هنا في قبضة القدر، وليس بيده أن يعود أو لا يعود. ولا بد أنه فقد القدرة على الرؤية. فالنهار الصريح قد رحل، وأقبل الليل المظلم. فقد خرج السندباد إذن من منطقة المعلوم إلى المجهول، ومن الوجود إلى الضياع والعدم.

ولم تكن هذه حال السندباد القديم، ولكن هكذا رأي الشاعر " سندباده الجديد "، أو رأى نفسه فيه. إن رحلته ليست رحلة مغامرة يعود بعدها بالثروة، كما كان شأن السندباد، ولكنها رحلة في عالم الضباب والمجهول، رحلة لا عودة منها:

هو لن يعود
أوَ ما علمتَ بأنه أَسَرتْه آلهة البحارْ
في قلعة سوداء في جزر من الدم والمحارْ

هو لن يعود
رحل النهار
فلْترحلي، هو لن يعود

إنها رحلة محكوم عليها بعدم الرجوع، هي رحلة الموت والفناء. والزمن الذي مضى لن يعود، والانتصار يم يعد له أي مبرر.. هكذا تقول الرؤيا:

الأفق غابات من السحب الثقيلة والرعود
الموت من أثمارهن وبعض أرْمِدة النهار
رحل النهار

وواضح أن رمز السندباد هنا، مقترن بالزوجة التي تحترق انتظاراً لعودة زوجها المغامر، دون أن تفقد الأمل في عودته، برغم ما تشير إليه كل الدلائل المادية، إنما ينفتح على رمز أسطوري آخر هو رمز أوليس وبنيلوب زوجته. فبينيلوب ظلت تنقض ما تغزل، والزمن يمضي. ولكنها لم تفقد الأمل في عودة أوليس. ومهما تقدّم بها السن، وفقدت زهرتها نضارتها، فإنها قد علّقت حياتها على أوهى خيط من الأمل في عودته. وهي برغم كل ما ألّم بها من ضيق، وما تعرّضت له من إغراءات، ظلت متعلقة بذلك الخيط الواهي. فماذا حدث لهذه الرفيقة الوفية ؟ لقد شاب شعرها الأشقر، وابتلت رسائل الحب بالدموع حتى امّحى الكلام فيها والوعود، وجلست تنتظر مشتتة الذهن، وفي رأسها دُوار، تحدّث نفسها:

"سيعود. لا. غرق السفين من المحيط على القرارْ
سيعود. لا. حجزَتْهُ صارخة العواصف في إسارْ
يا سندباد أما تعود ؟
كاد الشباب يزول، تنطفئ الزنابق في الخدود
فمتى تعود ؟
أوّاه، مد يديك بين القلب عالمه الجديدْ
بهما يحطّم عالم الدم والأظفار والسعارْ
يبني ولو لهنيهة دنياه
آه متى تعود ؟

خاتمة:

تمثل الأسطورة تقنية شعرية، يستطيع بفضلها الشاعر تضمين عديد المعاني في شخص واحد وكلمة واحدة، فالأسطرة اختصار للزمن، وانتقال عبر التاريخ، فهي مشاركة للماضي بصيغة الحاضر استثارة لمعنى محدد، وتكثيفا لدلالات الجمل الشعرية.